

عمل المرأة

بين الإسلام والغرب

لإبراهيم النعمان

المقدمة

الحمد لله حمداً يبلغني رضاه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد ، وآله الطيبين المخلصين ، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين !
أما بعد :

فإن موضوع مشاركة المرأة الرجل في أعماله من الموضوعات المهمة التي أثارت جدلاً في أوساط الناس قديماً وحديثاً ، فمنهم من دعا المرأة إلى العمل خارج البيت ، محاولاً جلب الأدلة العقلية من هنا وهناك ؛ لتبرير دعوته ، مستشهداً بالعالم الغربي، وما حققه من انجازات حضارية كبيرة ، فهم يريدون أن يقتفوا أثر الغرب في هذا، إذ صار عمل المرأة خارج بيتها - بزعمهم - ضرورة من ضرورات الحياة، ومنهم من وقف موقفاً مضاداً لذلك: وهؤلاء قد أعلنوا حربهم على عمل المرأة خارج البيت، مستشهدين بأدلتهم العقلية والنقلية على ذلك ، فوق استشهادهم بالواقع البائس الذي وصلت إليه المرأة الغربية يوم نزلت إلى ميدان العمل. أما الصنف الثالث من الناس ، فقد وقف موقفاً وسطاً بين الرأيين: فهو يقول بجواز أن تعمل المرأة ، ولكن بشروط وضوابط .

ولا بد لنا أن نقرر هنا أن قضية عمل المرأة لم تظهر في شرقنا الإسلامي إلا بعد أن هيمن المستعمرون على البلاد الإسلامية، واندفعت البعثات تلو البعثات

من شباب المسلمين إلى الغرب ؛ للدراسة في جامعاتها ومعاهدها . . وهناك
تأثر بريق الحضارة المادية الخلاب عدد ليس بالقليل من أولئك الدارسين، فعادوا
إلى بلادهم يحملون الدعوة إلى الاقتفاء بالغرب في كثير من الأشياء ، ومنها:
عمل المرأة خارج البيت !

وفي هذه الرسالة الصغيرة حديث عن المرأة الغربية وكيف نزلت إلى ميدان
العمل ، وما تعانيه اليوم من نكد وشقاء ، وماذا نتجَ عن عملها من نتائج
سيئة، والشروط التي يجب أن تتوفر في عمل المرأة، وماذا قالوا في عمل المرأة.
وأنهت البحث بخاتمة. سائلاً من الله الهداية والسداد ، والله يقول الحق، وهو
يهدي السبيل، هو نعم المولى ونعم النصير .

كيف نزلت المرأة الغربية إلى ميدان العمل

لم تخرج المرأة الغربية إلى ميدان العمل إلا وهي مكروهة على ذلك ، إذ كان الاقطاعيون يمتلكون الأرض ومن عليها: فكان الفلاحون يلاقون من شظف العيش وقسوته ما يلاقون، وحين ظهرت الثورة الصناعية، ترك الملايين من القرويين والفلاحين قراهم واتجهوا إلى المدن، لعلهم يحصلون على لقمة العيش بعزة وكرامة هناك، بعد ذلك العذاب الذي نالهم من فئات الاقطاعيين وجورهم، فقد كانوا يسمونهم سوء العذاب ! وتلقفت المدن أولئك الفارين من جحيم الاقطاعيين في مصانعهم الجديدة التي كانت بحاجة إلى عمال يديرونها.

لقد كان أولئك الفلاحون يعقدون الآمال على مجيئهم إلى المدن ، وعملهم في المصانع ويمنون أنفسهم، ويحلمون بحياة الرغد والهناء.. لكنهم أصيبوا بخيبة أمل مريعة حين اصطدموا بواقع مظلم كئيب، إذ لم يعطهم أولئك الجشعون من الرأسماليين إلا الفتات الذي لا يكاد يقيم أودهم ، مقابل ذلك التعب والنصب والساعات الطويلة التي يقضونها في العمل. وقد بلغ سوء حالة العمال منتهىها آنذاك، إذ كانت المعامل تفتقر إلى أقل المواصفات الصحية الجيدة.. وهكذا انتشرت الأمراض الفتاكة بينهم: فمات من مات، وتعطل عن العمل من تعطل، أما أسر العمال الذين ظلوا في قراهم، فقد ذاقوا من الفقر المدقع، والعوز البائس، والحاجة الكاوية ماندر وجوده ، إذ لم يستطع أولئك القرويون الذين هاجروا إلى المدن أن يرسلوا لأهليهم ما يسد حاجتهم من العيش ، كما لم يتمكنوا من جلبهم إلى المدن لسوء الحالة فيها.

وظلت النساء في انتظار أرباب الأسر الذين تركوا قراهم، لكنهم لم يعودوا، وكانت الأمراض الكثيرة تفتك بهم وتغتالهم. فإن لم يأخذهم الموت ظلوا في فقرهم وبؤسهم وشقائهم، وهكذا اضطرت النساء والأطفال إلى الهجرة إلى المدن، لعلهم يتمكنون من الحصول على لقمة العيش...!! أما الرأسماليون وأصحاب المعامل، فقد استغلوا فرصة نزول المرأة إلى ميدان العمل ، فوقفوا أمام العمال الذين صاروا يطالبون بزيادة أجورهم وقفة عدا، إذ كانت المرأة تتقاضى أجراً أقل مما يتقاضاه الرجل. وهكذا استغل هؤلاء الجشعون المرأة أبشع استغلال، فكانت تعمل الساعات الطويلة بأبخس الأجر!

هذه الحياة البائسة التي كانت تعيشها المرأة الغربية هي التي حملت طائفة من المفكرين والأدباء على تكوين الحركة الإنسانية (Humanitarian Movment) ، لتضع حداً لاستغلال الرأسماليين للطبقة العاملة وبخاصة الأطفال، واستطاعت هذه الحركة من سنّ قوانين تمنع تشغيل الأطفال ، لكنّ الرأسماليين ظلّوا يمتصّون دماء المرأة، فلم تنزل المرأة إلى ميدان العمل إلا لحاجتها الكاوية إليه .

المرأة العاملة في الغرب اليوم

إن وضع المرأة العاملة في الغرب اليوم - على الرغم من الحقوق التي حصلت عليها - لا يزال متردياً وكفينا أن نعلم أنها تحصل على أقل من أجر الرجل في كثير من مجالات العمل. إن المرأة هناك تحاول جاهدة أن تقتنن برجل ، لتخلص من حياة الوحدة القاسية، وفي زواجها تقوم هي بدفع المهر للرجل على العكس مما عليه المسلمون، إذ أوجبت الشريعة الإسلامية ذلك على الرجل لا المرأة، فوق أن الرجل في المجتمع الغربي غير مسؤول عن نفقة زوجته، وأما هي فمسؤولة مع الرجل عن الإنفاق على أولادهما، كما إنها للاحق لها في التصرف بملكيتها في كثير من الأحيان إلا بموافقة زوجها، بل إن المرأة التي تقتنن برجل تنازل عن اسم عائلتها ، فتصبح حاملة لاسم عائلة زوجها، وتلاقي المرأة ما تلاقي من الشقاء والحياة الضنكة ، إذ كثيراً ما يمل الرجل زوجته ، فيخادن امرأة أخرى ، وذلك أمر يسير لمن يطلبه في العالم الغربي، فتضطر هذه المسكينة إلى تناول حبوب منع الحمل، بل إن القوانين الغربية اضطرت إلى إباحة (الاجهاض). ففي أوائل السبعينات كانت مليون امرأة تجهض في أمريكا كل سنة^(١) . ومثل ذلك يقع في أوروبا، ولانعلم كم وصل العدد بعد تلك السنوات، وما اروع ما قال فيه العلامة (أبي الأعلى المودودي) رحمه الله مبيناً حياة المرأة الغربية المعاصرة:

«كان من نتائج ذلك (النظام الرأسمالي) أن أصبحت المرأة كلاً على زوجها، وأصبح الولد عبثاً على أبيه، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه، فضلاً عن

(١) « عمل المرأة في الميزان » للدكتور محمد علي البار: (ص ١٠٩) . الطبعة الأولى (١٤٠١ - ١٩٨١) ، الدار السعودية .

أن يعول غيره من المتعلقين به . وقضت الأحوال الاقتصادية أن يكون كل واحد من أفراد المجتمع عاملاً مكتسباً . فاضطرت جميع طبقات النساء - من الأرباب والأيامى والشيئات - أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويداً . ولما كثر بذلك اختلاط الصنفين، واحتكاك الذكور بالإناث، وأخذت تظهر عواقبه الطبيعية في المجتمع، تقدم هذا التصور للحرية الشخصية ، وهذه الفلسفة الجديدة للأخلاق فهداً من قلق الآباء ، والبنات، والإخوة، والأخوات، والبعولة، والزوجات، وجعلنا نفوسهن المضطربة تطمئن إلى أن الذي هو واقع أمام أعينهم لا بأس به ، فلا يوجد منه خيفة، إذ ليس ذلك هبوطاً وتردياً ، بل هو نهضة وارتقاء (Emancipation) ، وليس فساداً خلقياً ، بل هو عين اللذة والمتعة التي يجب أن يقتنيها المرء في حياته، وإن هذه الهاوية التي يدفع بهم إليها الرأسمالي ليست بهابوية إلى النار ، بل هي جنة تجري من تحتها الأنهار»^(١) .

نتائج عمل المرأة

هناك نتائج سيئة كثيرة نتجت عن عمل المرأة في الغرب، تركته يتقلب على جمر الغضى ويثن من ويلاتها، ولا نريد في هذه الرسالة الصغيرة استقصاء النتائج وتعديدها، بل نريد أن نأتي بأمثلة قليلة منها، وهي غيض من فيض؛ ليعتبر بها أولو النهى، ولتكون ذكرى لأولي الألباب.

١ - تدل البحوث الطبية على وجود تغييرات حصلت في جسم المرأة العاملة أدت وتؤدي إلى فقدان أنوثتها في نهاية المطاف من غير أن تتحول إلى رجل . وهذا النوع من النساء أطلق عليهن اسم الجنس الثالث . وتدل الإحصاءات على أن أكثر عقم الزوجات العاملات لم يكن بسبب مرض عضوي ظاهر، بل بسبب ما طرأ على كيان المرأة العاملة في الغرب، بعد أن انصرفت انصرافاً مادياً ، وذهنياً ، وعصبياً عن الأمومة التي فطرت عليها، ومحاولتها المساواة مع الرجل، ومشاركته في عمله . وهكذا تضرر تدريجياً وظائف الأمومة، فيكثر العقم، وينضب اللبن بين العاملات حين تندمج المرأة في أعمال الرجل، وتنصرف عن

(١) «الحجاب» لأبي الأعلى المودودي: (ص ٦٨ - ٦٩) . الطبعة الثانية (١٣٨٤ - ١٩٦٤)، دار الفكر بدمشق .

وظيفة الأمومة التي خلقت لها.

٢ - ظهرت في الغرب - نتيجة عمل المرأة - ظاهرات خطيرة، منها: ضرب الأطفال الصغار ضرباً مبرحاً ينتهي بهم إلى الوفاة، أو الجنون، أو التشوهات الجسدية!

وقد اطلقت المجلات على هذا المرض الجديد اسم (مرض الطفل المضروب) Battered Baby Syn .

وتذكر مجلة (هيكساجين) الطبية (1978 . Hexagon Vol. No.5):

أن كثيراً من مستشفيات أوربا وأمريكا يوجد فيها من هؤلاء الأطفال المضروبين ضرباً مبرحاً من أمهاتهم ، وفي بعض الأحيان من آبائهم.

« وفي عام ١٩٦٧ دخل إلى المستشفيات البريطانية أكثر من ٦٥٠٠ طفل مضروب ضرباً مبرحاً أدى إلى وفاة ما يقرب من ٢٠٪ منهم ، وأصيب الباقيون بعاهات جسدية وعقلية مزمنة. وقد أصيب المئات بالعمى، كما أصيب مئات آخرون بالصمم .. في كل عام يصاب المئات من هؤلاء الأطفال بالعته، والتخلف العقلي الشديد والشلل نتيجة الضرب المبرح»^(١).

ويحلل الدكتور آربي رئيس أقسام الأطفال في مستشفيات بريستول المتحدة في مدينة بريستول ببريطانيا فيقول:

« إن هؤلاء الأمهات يواجهن أزمات نفسية خطيرة أدت بهن إلى ضرب أطفالهن ضرباً ممتاً ، أو مؤدياً إلى عاهات مستديمة... وإن أغلب هؤلاء الأمهات لسن مجرمات بطبيعتهن ، ولكن وجود الأم بدون زوج ، واضطرابها للعمل والخروج ثم عودتها مرهقة إلى المنزل ؛ لتواجه الطفل الذي لا يكف عن الصراخ يفقدها اتزانها وعواطفها .. وقد لوحظ أن كثيراً من هؤلاء الأمهات يكرهن أولادهن كرهاً شديداً ، حيث ينغص هؤلاء الأطفال على أمهاتهم حياتهن»^(٢).

(١) « عمل المرأة في الميزان » للدكتور علي البار: (ص ١١٠) .

(٢) «عمل المرأة في الميزان»: (ص ١١٠ - ١١١) .

٣ - لا تستطيع المرأة العاملة أن تقدم رعاية متواصلة لأطفالها الصغار؛ لأن الوقت الذي تقضيه في العمل يستنفد أكثر طاقاتها. وقد خلق الله المرأة وجعل طبيعتها تتلائم مع وظيفتها كأم تعنى بتربية أطفالها، وترعى شؤون الأسرة والبيت. ولما تركت المرأة بيتها وخرجت مشاركة الرجل في أعماله ، أصاب الأطفال ما أصابهم من أمراض نفسية واجتماعية وخلقية . جاء في تقرير لهيئة الصحة العالمية:

« (إن كل طفل مولود يحتاج إلى رعاية أمه المتواصلة لمدة ثلاث سنوات على الأقل ، وإن فقدان هذه الرعاية يؤدي إلى اختلال الشخصية لدى الطفل، كما يؤدي إلى انتشار جرائم العنف الذي انتشر بصورة مريعة في المجتمعات الغربية). وطالبت هذه الهيئة الموقرة بتفريغ المرأة للمنزل ، وطلبت من جميع حكومات العالم أن تفرغ المرأة ، وتدفع لها مرتبا شهريا إذا لم يكن لها من يعولها ، حتى تستطيع أن تقوم بالرعاية الكاملة لأطفالها . وقد اثبتت الدراسات الطبية والنفسية: أن المحاضن وروضات الأطفال لا تستطيع القيام بدور الأم في التربية، ولا في اعطاء الطفل الحنان الدافق الذي تغذيه به »^(١).

٤ - قلة المواليد، لكثرة استخدام حبوب (منع الحمل) وتحديد النسل. وقد شعرت الأمم التي اتسع نطاق عمل المرأة فيها بذلك الخطب الكبير الذي يهددها ويأتي على بنيانها من القواعد ، فصارت تضع حوافز مادية للأسر التي تنجب عدداً كثيراً من الأطفال . وهذا ما قامت به (فرنسا) و(ألمانيا) و(روسيا) . . . بل إن هذا ما تفعله إسرائيل - أيضا - على نطاق واسع . وهكذا يؤدي عمل المرأة إلى قلة السكان بدل الزيادة ، إذ المرأة - في الغالب - لا تستطيع أن تقوم بمسؤولية الحمل ، والرضاعة، وتربية الأطفال مع العمل خارج البيت .

والعجب كل العجب - وإن شئت فقل لالعجب - أن يكتب الذبوع والانتشار لحبوب منع الحمل ، وتحديد النسل في البلاد الإسلامية، وبخاصة البلاد العربية التي تعتبر خالية من السكان بالنسبة إلى البلاد غير الإسلامية؛ لأن الأمهات - بزعمهن - لا يستطعن القيام بتربية عدد كثير من الأطفال .

(١) « عمل المرأة في الميزان »: (ص ٥٧ - ٥٨) .

٥ - أدى عمل المرأة خارج البيت إلى تزلزل الأخلاق بكثرة المخالطات بين الرجال والنساء، الأمر الذي أدى إلى أن تفقد المرأة خفرتها، وحياءها ، وعفتها، وطهرها. يقول العالم الطبيعي (أنطون نيميلون) في كتابه «بيولوجية المرأة» ، مبينا عواقب انتشار الفاحشة بسبب مشاركة المرأة الرجل في عمله فيقول:

« الحق أن جميع العمال قد بدت فيهم أعراض الفوضى الجنسية، وهذه حالة جد خطيرة تهدد النظام الإشتراكي بالدمار، فيجب أن تحارب بكل ما أمكن من الطرق؛ لأن المحاربة في هذه الجهة ذات مشكلات وصعوبات. ولي أن أدلكم على آلاف من الأحداث يعلم منها أن الإباحية الجنسية قد سرت عدواها لافي العمال الأغرار فحسب بل في الأفراد المثقفين من طبقة العمال أيضاً .. »^(١).

٦ - أدى عمل المرأة خارج بيتها إلى تفكك الأسر ، ووقوع المشكلات المعقدة بين الزوج وزوجته، فكثر حوادث الطلاق وتشرذم الأطفال .

شروط إسلامية في عمل المرأة

الأصل أن تظل المرأة متفرغة لشؤون بيتها وزوجها وأطفالها.. ولكن قد تصيبها أحوال قاسية تضطر فيها إلى العمل: كفقد رب الأسرة ، أو إصابته بعاقة تمنعه من العمل . ففي هاتين الحالتين وأمثالهما يجوز للمرأة أن تعمل خارج بيتها على أن تراعي الشروط الآتية:

١ - أن يوافق والدها، أو من يقوم مقامهما عند فقدهما للعمل . وإذا كانت متزوجة فلا بد من موافقة زوجها ، إذ موافقته واجب ديانة وقضاء ، وموافقة الوالدين ، ومن يقوم مقامهما واجب ديانة .

٢ - أن يكون عملها سالماً من الاختلاط، والخلو بالرجال الأجانب ، ذلك أن الاختلاط ، أو الخلو داء وبيل ينتج عنه ما ينتج من آثار سيئة كثيرة ، ويكفيها نهي رسول الله ﷺ عن الخلو بقوله عليه السلام: (لا يخلون رجل

(١) « ماذا عن المرأة » للدكتور نور الدين عتر: (ص ١٤٦ - ١٤٧) . الطبعة الأولى (١٣٩٠ - ١٩٧١)، مطبعة البلاغ / حلب .

بامرأة إلا مع ذي محرم^(١) .

وفي رواية: (ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما)^(٢) .

٣ - أن تستر جسدها - كله - بحضرة الرجال الأجانب ، وتبتعد عن كل لون من ألوان الفتنة في الملبس ، أو الزينة ، أو التعطر: فلا ترتدي الملابس الشفافة، ولا الضيقة التي تلفت الانظار إليها ، ذلك أن العمل ليس ميداناً من ميادين إبراز المفاتن، وعرض الأزياء .

٤ - أن تلتزم بالأخلاق الإسلامية، وتكون جادة في حديثها ، وقد أوصى الله صفوة نساء العالم زوجات النبي ﷺ بقوله: ﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا﴾^(٣) .

٥ - ينبغي أن يكون عملها منسجماً مع طبيعتها وقدرتها: كالتعليم، والتمريض ، والخياطة ، والولادة، .. وأن لا تكلف بعمل لا طاقة لها به ، ذلك أن طبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل ، وتباين قدرتها عن قدرته بصورة عامة. وهذا الاختلاف في الطبيعة والقدرة يحتم أن تختلف المرأة عن الرجل في التخصص بالعمل .

قالوا في عمل المرأة

١ - قالت الكاتبة الشهيرة (أنارورد) في مقالة لها نشرتها في جريدة (الأسترن ميل) الإنكليزية:

« .. لأن تشغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاء من اشتغالهن في المعامل ، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد .. ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين ، فيها الحشمة والعفاف رداء... إنه

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح «باب: لا يخلون رجل بامرأة إلا معها ذومحرم» ، رقم (٥٢٣٣) ، ومسلم في كتاب الحج «باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره» ، رقم (١٣٤١) .

(٢) رواه الطبراني عن أبي إمامة .

(٣) «سورة الأحزاب»: (٣٢) .

عار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلاً للردائل بكثرة مخالطة الرجال ، فمالنا لانسعى وراء مايجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت ، وترك أعمال الرجال سلامة لشرفها»^(١).

٢ - وقال الفيلسوف الاقتصادي (جول سيمون) في مجلة المجلات:

« النساء قد صرن الآن نساكات وطباكات .. إلخ ، وقد استخدمتهن الحكومة في معاملها ، وبهذا فقد اكتسبن بضعة دريهمات، ولكنهن في مقابل ذلك قد قوضن دعائم أسرهن تقويضاً»^(٢).

٣ - قام معهد (غالوب) في أمريكا باستفتاء عام حول رأي النساء العاملات في عمل المرأة فإذا هو ينشر الخلاصة الآتية:

« إن المرأة متعبة الآن ، ويفضل (٦٥ بالمائة) من نساء أمريكا العودة إلى منازلهن . كانت المرأة تتوهم إنها بلغت أمنية العمر ، أما اليوم ، وقد أدمت عثرات الطريق قديمها ، واستنزفت الجهود قواها ، فإنها تود الرجوع إلى عشاها، والتفرغ لاحتضان فراخها»^(٣).

٤ - قال الأستاذ محمد جميل بيهم:

« أجمع المصلحون المجددون في الشرق أمثال غاندي^(٤) ، وفصل الأول ، ومحمد علي جنة (جناح) ، وسعد زغلول ، وعبد الرحمن شهبندر ، وهم غير طبقة رجال الإصلاح المحافظين ، على أنه ليس من صالح الشرق أن يفتح المجال لنسائه لكي يخرجوا من خدورهم إلى ميادين الكسب . وهو الصواب عينه؛ لأن المرأة التي تنصرف إلى الأعمال الخارجية يخسر بيتها ، وزوجها ،

(١) « عقبات الزواج » للاستاذ عبد الله علوان: (ص ١٢١) .

(٢) « المرأة بين الفقه والقانون » للدكتور مصطفى السباعي: (ص ١٧٦) .

(٣) « المرأة في الإسلام وفي الحضارة الغربية » للاستاذ محمد جميل بيهم: (ص ٢٠) ، الطبعة الأولى / دار الطليعة بيروت .

(٤) رد الزعيم غاندي على سؤال وجهته له جريدة باريسية بحديث جاء فيه: نعم يجب ألا تنزل المرأة عن عرشها ؛ لكيلا ينهدم النظام . وكيف نجد السعادة مأوى في بيت تشتغل صاحبه على الآلة الكاتبة كل النهار ، وتتناول غداءها في المطاعم ، وتذهب إلى البيت؛ لتنام فقط ؟! ومن ذا الذي يعنى بالأطفال؟ ثم ماقيمة البيت بغير الأطفال الذين هم زينة الحياة الدنيا واللؤلؤة الساطعة في أحقر الأكواخ ؟!

وأولادها من الراحة المنزلية بقدر ما تربح من المال خارج المنزل ؛ وذلك لأن الزواج يخلق للمرأة واجبات لا تستطيع الخادومات - مهما كن حاذقات - سد فراغها ، هذا إذا بقي في المستقبل خادومات ، وإن العالم الغربي في أوروبا وأمريكا لا يكابر في هذا الموضوع ، بل إنه لا يزال يجنح عملياً إلى فكرة لزوم المرأة دارها، حتى إن نسبة النساء اللواتي يقتصرن على الشؤون المنزلية في الولايات المتحدة - وهي أكثر البلاد تطرفاً في حرية المرأة - لا تزال تبلغ حداً عالياً^(١) .

٥ - وقال العلامة الإنجليزي (سامويل سمايلر) وهو من أركان النهضة الإنكليزية ، وله كتب مهمة ترجم أغلبها إلى الفرنسية:

« إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في الفابريكا مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد ، فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية ، لأنه هاجم هيكل المنزل ، وقوّض أركان الأسرة ، ومزق الروابط الاجتماعية، فإنه بسلبه الزوجة من زوجها، والأولاد من أقاربهم صار بنوع خاص لا نتيجة له إلا تسفيل أخلاق المرأة، إذ وظيفة المرأة الحقيقية هي القيام بالواجبات المنزلية: مثل ترتيب مسكنها، وتربية أولادها ، والاقتصاد في وسائل معيشتها مع القيام بالاحتياجات البيئية، ولكن المعامل تسلخها من كل هذه الواجبات ، بحيث أصبحت المنازل غير منازل، واضحت الأولاد تشب على عدم التربية ، وتلقى في زوايا الإهمال، وطفئت المحبة الروحية، وخرجت المرأة عن كونها الزوجة الظريفة ، والقرينة المحبة للرجل ، وصارت زميلته في العمل والمشاق ، وباتت معرضة للتأثيرات التي تمحو غالباً التواضع الفكري والأخلاقي الذي عليه مدار حفظ الفضيلة^(٢) .

٦ - وقالت محررة (مع المرأة) في جريدة الأهرام تحت عنوان (قولي الحقيقة.. المرأة العاملة تتمنى أن تعود امرأة):

توليت المرافعة في قضية خاسرة، ودافعت عن مكانة المرأة العاملة وأنوثتها، ولكن يبدو إنني سأكفُّ عن مرافعتي بعد أن تبينت إنني خسرت القضية ، بهذا

(١) «الإسلام والأسرة» للشيخ معوض عوض إبراهيم: (ص ٤١ - ٤٢) ، دار النشر للجامعيين .

(٢) «دائرة معارف القرن العشرين» لمحمد فريد وجدي: (٦٣٩/٨) ، الطبعة الثالثة (١٩٧١) ، دار المعرفة - بيروت .

الجواب الذي وصلني من واحدة منا، صاحبة سيدة ، تشغل مركزاً محترماً ،
وتعمل من خمس وعشرين سنة ، تقول لي بالحرف الواحد:

« إما أنك تخدعين نفسك ، وأما أنك مازلت في أول سنوات العمل . إن الرجال على حق فيما يقولون . فالمرأة العاملة تفقد أنوثتها فعلاً بالعمل ، وقد يدهشك إنني أتمنى - بعد أن أمضيت مدة طويلة في العمل المضني ، وأشعر أن غيري كثيرات يشاركنني هذا التمني - ألا أخرج من بيتي ، وألا أترك أولادي صباح كل يوم؛ لأذهب إلى مكنتي ، ولكنني أعمل وأشقى لأفقد أنوثتي فعلاً في سبيل (العناد) . إنني مثلك أخشى أن يقول الرجال: إننا تراجعنا عن ميدان العمل وفشلنا ، ولذلك فأنا وغيري نضحى بأنفسنا لكي نغيظ الرجال . قولي الحقيقة: إن المرأة مهما تقدمت في عملها ، فهي لا تحب أن تصبح رجلاً ، بل تتمنى أن تتمتع بأنوثتها إلى أقصى حد !! حالة واحدة تتمنى فيها المرأة أن تعمل ، عندما يكبر الأولاد ، ويذهب كل واحد منهم إلى حال سبيله ، وفي هذه الحالة تستشعر رغبة شديدة في العمل، إذ لم يعد هناك ما يذكرها بأنوثتها، إنها تعود إلى العمل بإحساس الرجل لا بإحساس المرأة »^(١).

٧ - قال الفيلسوف الفرنسي (أجومت كومت) في كتابه «النظام السياسي على مقتضى الفلسفة الوضعية»:

« ينبغي أن تكون حياة المرأة بيتية ، وألا تُكلف بأعمال الرجال ، لأن ذلك يقطعها عن وظيفتها الطبيعية ، ويفسد مواهبها الفطرية ، وعليه فيجب على الرجال أن ينفقوا على النساء دون أن ينتظروا منهن عملاً مادياً كما ينفقون على الكتاب والشعراء والفلاسفة ، فإذا كان هؤلاء يحتاجون لساعات كثيرة من الفراغ لإنتاج ثمرات قرائحهم ، كذلك يحتاج النساء لمثل تلك الأوقات ؛ ليتفرغن فيها لأداء وظيفتهن الاجتماعية: من حمل ووضع وتربية .. »^(٢).

٨ - نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر يوم (١٩٦١/٥/٢٩) تحت عنوان: (أستاذة جامعية تنصح طالباتها بالزواج) قالت الجريدة:

أستاذة جامعية في إنجلترا وقفت هذا الأسبوع أمام مئات من طلبتها وطالباتها

(١) «الإسلام والأسرة»: (ص ٣٨ - ٣٩) .

(٢) « إسلامنا » تأليف السيد سابق: (ص ٢٢٠) ، دار الكتاب العربي - بيروت .

تلقي خطبة الوداع بمناسبة تقديم استقالتها من التدريس . قالت الأستاذة:

« ها أنا قد بلغت الستين من عمري ، وصلت فيها إلى أعلى المراكز ، نجحت وتقدمت في كل سنة من سنوات عمري ، وحققت عملاً كبيراً في المجتمع . كل دقيقة في يومي كانت تأتي علي بالريح . حصلت على شهرة كبيرة ، وعلى مال كثير ، اتاحت لي الفرصة أن أزور العالم كله ، ولكن هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققت كل هذه الانتصارات ؟

لقد نسيت في غمرة انشغالي في التعليم والتدريس ، والسفر والشهرة أن أفعل ما هو أهم من ذلك كله بالنسبة للمرأة . . نسيت أن أتزوج ، وأن أنجب أطفالاً ، وأن استقر ! إنني لم أتذكر ذلك إلا عندما جئت لأقدم استقالي ، شعرت في هذه اللحظة إنني لم أفعل شيئاً في حياتي ، وإن كل الجهد الذي بذلته طول هذه السنوات قد ضاع هباء . . فسوف استقيل ، وسيمر عام أو اثنان على استقالي ، وبعدها ينساني الجميع في غمرة انشغالهم بالحياة ! ولكن لو كنت قد تزوجت وكونت أسرة كبيرة ، لتركت أثراً أكبر وأحسن في الحياة . إن وظيفة المرأة الوحيدة هي أن تتزوج ، وتكون أسرة ، وأي مجهود تبذله غير ذلك لقيمة له في حياتها هي بالذات ، إنني أنصح كل طالبة تسمعي أن تضع هذه المهام أولاً في اعتبارها ، وبعدها تفكر في العمل والشهرة » ^(١).

٩ - قال قاسم أمين قبل وفاته بعام ونصف ، وكان قد اقترن اسمه بتحرير المرأة:

« لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن إلى اقتفاء أثر الترك بل الإفرنج في تحرير نسائهم ، وغاليت في هذا المعنى حتى دعوتهم إلى تمزيق ذلك الحجاب ، وإلى اشتراك النساء في كل أعمالهم ومآدبهم وولائهم . . ولكنني أدركت خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس . فلقد تبعت خطوات النساء في كثير من أحياء العاصمة والإسكندرية ، لأعرف درجة احترام الناس لهن ، وماذا يكون شأنهم معهن إذا خرجن حاسرات ، فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف ما حمدت الله على ماخذل من دعوتي، واستنفر الناس إلى معارضي» ^(٢).

(١) « إسلامنا » للسيد سابق: (ص ٢٢٧ - ٢٢٨) .

(٢) « عمل المرأة في الميزان »: (ص ٧) .

ماذا عن عمل المرأة ^(١)

« إنك إذا رحلت تبحث عن حقيقة الرقي الذي تجنيه المرأة في المجتمع من هجر البيت إلى السوق والعيادة والمكتب .. لا تجد إلا الخسارة الظاهرة والصفقة البائرة .

لقد خرجت المرأة الأوروبية والأمريكية إلى السوق والمصنع ، والشارع والمرقص بتبغى في ذلك وغيره لقمة العيش .. فماذا صنعت لنفسها من كرامة ، وماذا صنع لها الأوروبيون والأمريكيون .. ؟

لقد ارخصوها ، وابتذلوا إنسانيتها ، وأهدروا كل قيمة أديت لها . فسكرتيرة المكتب فتاة جميلة ، ولا تغني عنها فتاة أخرى دونها في الجمال - ولو كانت أذكى وأفضل - وبائعة المتجر فاتنة مثيرة لشير رغبات الشراء ، ورغبات الغرائز جميعاً ... والجالسة إلى صندوق النقود لا تصل إلى كرسيها إلا بكفاءة واحدة: هي الإغراء ؛ لأرضاء الزبائن ! فما معنى هذا كله ؟

المعنى: أن القوم لم ينظروا إليها إلا على أنها ذات أنوثة قديرة على الإثارة ومضاعفة الكسب ، وهذا هو الرقيق بعينه ، الرقيق الحر أو التحرر ، يساق إلى أسواق النخاسة تحت سياط الحاجة والفاقة .. لا للخدمة في المنازل حيث الصوت والستر، بل للابتذال في المتاجر ، حيث تعرض الفتاة أثمن خصائص أنوثتها سلعة لقاء اللقمة التي تقيم أودها» .

زوجة تحكي مأساتها

إن الله عزوجل رضي لنا كتاباً إذا اعتصمنا به كان أماناً لنا من كثير من المشكلات والمصائب ، وواقعاً لنا من الرزايا والبلايا بمشيئة الله ، ولو أننا جعلنا أهواءنا تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ ، ولم نسر وراء الغرب سراعاً نقلد ونقتبس على غير هدى؛ لما نزل بساحتنا مانسكو منه .

إن البلاء الذي نزل بالبلاد الإسلامية - ومنها البلاد العربية - من جراء اقتفائها

(١) عن كتاب «ماذا عن المرأة»: (ص ١٦٠ - ١٦٢) .

أثر الغرب وتقليده فيما يحل وما لا يحل ، وما يصح وما لا يصح ، يتعاضم يوماً بعد يوم ، وما يشكو منه بلد من المغرب العربي ، يشكو منه كل بلد تقريباً في المشرق العربي .

لقد برزت مشكلات ، ونزلت بالناس مصائب وما كان لها أن تبرز وتنزل؛ لو لم تتبع الغرب ونمى خلفه .

لقد عرضت امرأة مسلمة شكواها في بلد عربي في جريدة سيارة ، لعلها مشكلة كثيرات من النساء في العديد من بلاد المسلمين . فمما قالتها المرأة في شكواها .

« أنا سيدة في العقد الثالث من العمر ، من عائلة محافظة ومحترمة ، تزوجت منذ خمسة عشر عاماً من رجل كل ما يمتاز به أنه حسن السيرة والسلوك ، موظف في إحدى دوائر الدولة براتب ضئيل جداً ، لا يكاد يكفي ماتتطلبه لوازم الحياة الضرورية ، ولكنني تحملت ذلك بكل سرور ، وكنت قانعة ، وكانت قناعتني مصدر سعادتي ، مع العلم أنني كنت أعيش في منزل أهلي حياة رفاة وبذخ ، وتجنبنا الاحتكاك كثيراً مع أهلي حتى لا أرى الفرق الكبير بين حياتي وحياتهم .

وأرى من الضروري أن تعلم أن أهلي هم الذين وافقوا على زواجي منه مع معارضتي الشديدة لهذا الزواج ، ومع كل ذلك وجدت نفسي راضية بما أَرَادَهُ اللهُ لي ، وأنجبت أربعة أطفال ، وازداد دخله مع زيادة الأولاد والحمد لله ، وأرسلنا أولادنا إلى أحسن المدارس ، ونحن وزوجي نضحى بكل شيء في سبيل تعليمهم ، حتى أن زوجي يضحى بمصروفه الخاص من أجل نفقاتهم المدرسية ومتطلباتهم .

ولكن يا سيدي حدث ما لم يكن في الحسبان: فقد بدأت الموظفات تغد إلى دوائر الدولة إلى حد أن أصبح في كل غرفة أكثر من موظفة، بينما لا يكون بين هذه الموظفات إلا رجل واحد ، وكان زوجي من بين الموظفين الذين ابتلاهم الله بأن يجلسوا كل يوم أمام بنتين أو ثلاث من الصباح حتى الثانية بعد الظهر، أي ست ساعات متوالية . طبعاً كان بلاء في أول الأمر ، لأنه كان رجلاً فاضلاً غيوراً وله ضمير ، ولكنه أصبح عصياً ؛ لأن عمله توقف ، والهدوء

الذي كان ينشده أصبح معدوماً ، فلكل واحدة أصدقاء وصديقات في الجامعة يأتون لزيارتها ، وتبدأ النكات والضحك والمزاح .

وهكذا تمضي ست ساعات من اليوم دون أي عمل ، وبدأ زوجي يأتي بعمل الدائرة إلى البيت ؛ لإنجازه ، وأهمل عمله الإضافي الذي كنا نسدد منه كثيراً من المصروفات عن أجرة المنزل ، وأهملني وأطفاله ، وأصبح عبوس الوجه حاد الطباع ، لا يكاد يكلمه أحد أطفاله حتى ينهال عليه ضرباً مبرحاً ، وعندما أسأله عما آل إليه حاله يقول: قلبي للدولة أن تمنع هذا ، فأنا إنسان ، وأبدأ أسمع منه ما يجري بين هذه وذاك من أمور ، وهو يرى بعينه ويسمع بأذنيه ، ولا يمكنه أن يتكلم .

وبعد: ياسيدي أتعلم ماذا جرى ؟ لقد جرفته الدوامة ، وأصبح المال القليل الذي كان يتفق على الأولاد ، ومدارسهم ، وأكلهم ، وملبسهم ، ودوائهم لا يكفي لإنفاقه وحده ، وبدأ تتراكم الديون علينا ، وبالأحرى عليّ أنا؛ لأنه لم يعد يهمه من البيت إلا أن يأكل به وينام ، وكأنه ليس مسؤولاً عنه ، وبدأت الخلافات تزداد ، وشعر الأولاد بإهمال والدهم لهم ، فأصبحوا لا يهابون أحداً ، حتى البنات ، وبدأت أخلاقهم ياسيدي بالانحلال ، وهذا ماكنت أخافه وأخشاه! وهكذا ياسيدي تقوضت سعادتي ، وانهار هذا المنزل الذي بنيت به بقناعتني ، وصبري ، ونكران ذاتي .

سيدي: هذه هي مشكلتي ، بل مشكلة كل زوجة ابتلاها الله بأن يكون زوجها موظفاً ، ألا تراها جديرة بالاهتمام ؟ ألا تراها مشكلة أمة ومستقبل جيل ؟ فأنا لا ألوم زوجي ولا أي رجل . وماذا تريد من الرجل أن يفعل أمام الإغراء: أيغمض عينيه ؟!

وخاصة عندما يبقى في كثير من الأحيان مع إحداهن منفرداً^(١) .

(١) «المراة بين الفقه والقانون» للدكتور مصطفى السباعي: (ص ٢٨١ - ٢٨٣) .

خاتمة

خلق الله الرجل والمرأة ، وركب في كل منهما خصائص: فمما اختص به الرجل - في الغالب - قوة عضلاته ، وقدرته على مزاولة الأعمال المرهقة ، وجلده وصبره .. ؛ لذلك اندفع في العمل المضني: فهو يتعب وينصب في تحصيل لقمة العيش والحياة الهائلة ، أما المرأة فقد اختصت بمشاق أخرى من الحمل، والوضع، والرضاعة، والحضانه، وتربية الأولاد: فهي في كل شهر تحيض فتضطرب حالتها الصحية ، وتقل شهيتها للطعام، وتصاب بالآلام كثيرة من صداع في الرأس ، وآلام في البطن، وضعف في التفكير ..

وإذا حملت المرأة ازدادت آلامها أكثر من ذي قبل: فيبدو الضعف عليها واضحا في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل . أما في أشهر حملها الأخيرة ، فإن آلامها تكثر حتى تصير عاجزة عن أداء الأعمال التي كانت تمارسها بصورة طبيعية قبل الحمل، والله - عز وجل - يقول: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين﴾^(١) .

وعندما تلد المرأة تظل مدة قد تصل إلى أربعين ، أو ستين يوماً مريضةً ، تتحمل فيها من الآلام الكثيرة ما تتحمل .

أما فترة الرضاعة والحضانه ، فتستغرق عامين ، يشارك الرضيع أمه في طعامها وغذائها ، ويفقدها كثيراً من قوتها .

لذلك أراد الإسلام للمرأة أن تقوم بالأعمال التي لا تتنافر مع طبيعتها وتكوينها ، ولم يقيد حقها في العمل إلا بما يحفظ لها عزتها وكرامتها وراحتها، ويصونها عن التبذل والسقوط .

لقد ضمن الإسلام للمرأة حياة سعيدة هائلة، ولم يجعلها بحاجة إلى عمل خارجي في الأحوال الاعتيادية، فألقى على كاهل الرجل الجد والنصب والتعب؛ للحصول على لقمة العيش، وأعطى المرأة من ذلك. فما دامت المرأة غير متزوجة، ولا معتدة من زوج ، فتكون نفقتها على أصولها وفروعها حسب ما قرره فقهاؤنا رضي الله عنهم. وإذا تزوجت المرأة ، فإن الزوج يصير مكلفاً بالقيام

(١) «سورة لقمان»: (١٤) .

بشؤونها، وإذا طلقت فإن الزوج ينفق عليها مادامت في العدة، ويدفع لها مؤخر الصداق، وينفق على أولاده منها، ويدفع أجور حضانتهم وإرضاعهم، والمرأة لا تتكلف بشيء من ذلك. أما إذا لم يكن للمرأة مورد يسد حاجتها، فإن دولة الإسلام هي المسؤولة عن ذلك، ويكون الإنفاق عليها من بيت مال المسلمين .

إن المرأة في الغرب لم تنزل إلى ميدان العمل إلا بعد أن نكل الرجل عن سد حاجاتها، فصارت مرغمة على العمل. ولو كانت تملك من الأمر شيئاً لما أقدمت على العمل . يقول الدكتور محمد يوسف موسى - رحمة الله - :

« ولعل من الخير أن أذكر هنا أنني حين إقامتي بفرنسا ، كانت تخدم الأسرة التي نزلت في بيتها فترة من الزمن فتاة يظهر عليها مخايل أو علائم كرم الأصل، فسألت ربة الأسرة: لماذا تخدم هذه الفتاة ؟ أليس لها قريب يجنبها هذا العمل غير الكريم؛ لكسب ماتققيم به حياتها ؟ فكان جوابها: إنها من أسرة طيبة في البلدة ، ولها عم غني موفور الغنى، ولكنه لا يُعنى بها ولا يهتم بأمورها، فسألت: لماذا لا ترفع الأمر للقضاء للحكم عليه بالنفقة ؟ فدهشت السيدة من هذا القول ، وعرفتني أن ذلك لا يجوز لها قانوناً .

وحينئذ أفهمتها حكم الإسلام في هذه الناحية، فقالت: من لنا بمثل هذا التشريع؟! لو أن هذا جائز قانوناً عندنا ، لما وجدت فتاة أو سيدة تخرج من بيتها للعمل في شركة، أو مصنع، أو معمل، أو ديوان من دواوين الحكومة مثلاً^(١) .

وبعد:

فهل آن لنا أن ندرك عظمة هذا الدين في كل حكم من أحكامه ، وأن نتمسك به ونعص عليه بالنواجذ ، ونحكمه في كل شأن من شؤون حياتنا، ونعتقد اعتقاداً جازماً بصلاحه؛ للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان ، وأن به وحده - لابسواه تكون سعادتنا في الدنيا وفوزنا في الآخرة .

« ربنا لاترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

(١) «الإسلام والحاجة الإنسانية إليه» للدكتور محمد يوسف موسى: (ص ٢٥٦ - ٢٥٧) .